المحاضرة الثانية: سجع الكهان

كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطّلع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعها من الجنّ، وكان واحدها يسمّى كاهنا كما يسمى تابعه الذي يوحي إليه باسم "الرَّئِيّ". وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم، فكانت لهم قداسة دينية، وكانوا يلجأون إليهم في كل شئونهم، وقد يتخذونهم حكاما في خصوماتهم ومنافراتهم، وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن أرائهم في كثير من شؤونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو قعود عن نُصرة أحلاف أو نهوض لحرب، وكثيرا ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر، كما كانوا كثيرا ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم.

وكانت منزلة الكهان في الجاهلية كبيرة، إذ ساد الاعتقاد أنه يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها. ومن أشهر كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سوّاد بن قارب الدُّوسيّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه، ومنهم المأمور الحارثيّ، كاهن بني الحارث بني كعب، وخُنافر الحميري، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه "شِصار". وأكهنهم عزّى سلِمة ومن قوله: والأرض والسماء، والعُقاب والصّقعاء [الشمس]، واقعة ببقعاء [ماء أو موضع]، لقد نفّر [حكم بالغلبة] المجد بني العُشراء للمجد والسناء [الرفعة]".

ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كنّ في الأصل من النّساء اللائي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن: الشعثاء، وكاهنة ذي الخَلَصَة، والكاهنة السّعدية، والزرقاء، وزبراء كاهنة بني رئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت:"واللّوح [الريح] الخافق والليّل الغاسق والصباح الشّارق والنّجم الطّارق والـمُزْنُ [السحاب المضيء] الوادق[الممطر]، إنّ شجر الوادي ليأْدُوا [ينضج ثمره] ختلاً، ويحرق أنيابا عُصلا[أنياب معوجة. كناية عن الغضب والشر]، وإنّ صخر الطّود [الجبل]لينذر ثُكلا [الهلاك وفقد الأحبة]، لا تجدون عنه مَعْلا [الملجأ]".

وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنتهم فردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعزّ:" ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون"، وقوله سبحانه وتعالى:" فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن"، وقال أيضا:"إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون".

وإضافة إلى خاصية السجع التي وسمت كلام هؤلاء الكهنة، كانوا يعمدون أيضا إلى ألفاظ غامضة مبهمة، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه، ومن ثمّ دخل الرمز في كثير من أقوالهم، إذ يومئون إلى ما يريدون أيماءً، وقلما صرّحوا أو وضّحوا، بل دائما يأتون المعاني من بعيد، فكانوا لا يحبذون أن يصوروا في وضوح معانيهم، وكانوا يتخذون لها أشباحا واضحة من اللفظ تدلّ عليها، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل. كما يلاحظ أيضا على سجع الكهان كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي وكثير من الطير، وفي ذلك ما يدلّ على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحا خفية.

وقد أكد كارل بروكلمان في تأريخه للأدب العربي، أن أقدم القوالب الفنية العربية هو السجع، أي النثر المقفى المجرد من الوزن، حيث ذهب إلى أن تلك القوالب ترقت إلى الرجز الذي نشأت منه أبحر الشعر العربي. وبهذا يمكن القول إن الصيغة الأسلوبية التي تطورت عنها الأعاريض لا يمكن إلا أن تكون السجع، الذي استأثر بمعظم ضروب التعبير النثري في العصر الجاهلي واعتمد عليها القرآن بوصفها أكثر الصيغ تواترا فيه، وهيمنتها في الخطاب القرآني دليل على اطّرادها في ضروب التعبير النثري الأخرى، وعن الصيغة السجعية ظهرت الأعاريض البسيطة التي يعدّ الرجز أكثرها وضوحا.